# على هامش *

# محمد عبدالله محمد !

على هامش قصيدة : الشّص، للأستاذ المحامى الشاعر الأديب محمد عبد الله محمد، عشت اليومين السابقين وأنا أتأمل فى أبياتها التى نقلتها إليك .. ترى أى معشوقة هى حلوة العينين التى يخاطبها محمد عبد الله محمد فى مطلع القصيدة ؟ ويصف حلاوتها بأنها مَحْدٌ عليها أن تلتفتِ إليه بقلب شاكر . يبدو أن الشاعر يخاطب نفسه داعيًا إيّاها ألا يصرفها التيه عن التفطن إلى ما حباها الخالق به، ولا أن يغلب عليها حساب التاجر فى تعامله مع الدنيا، ولا أن تخشى تقدم السن وانصرام العمر !

هو إذن يخاطب نفسه، ولكنه يخاطبها كاللائم العاتب. يعاتبها أن تقعد عن التمثل بالزهرة التى تشكر ربها على نعمائه، وعلى الدرة التى أنبتتها، والحو الذى نشأت وعاشت ونمت وترعرعت فيه. فهذا هو حال النفس .. لم يكن لها فى إيجادها يد، ولا اختيار لها فى المحيط الذى مِنْ حولها، ومع ذلك تصرف عن التفطن لنعمة الخالق الذى جاء بها إلى هذه الدنيا ووفر ما وفره لها ولكافة الخلائق فيها !

عاش الإنسان بالتكرار منذ نشأته، وعلى هذا التكرار بنى دوله وحضاراته.. حال الفرد فى الدنيا كحال الراقص على حلبة الرقص .. راقص يقفو خطوات وتصفيقات راقص، ويحذو حذوه يتتابع معه

---

* المقال ٢٠١٠/٥/١٧

الإيقاع على "الوَحدة" .. فهل تفطن الإنسان لتمثل معنى دوره فى الحياة قبل نهاية "القصّ" وإسدال الستار؟!

كم جال عقله سدًى فى فيافى وبحور الأشواق لا يبغى سوى شاطئ اليقين، ولكن ما بال الشارد يقفو شاردا مثله ؟ ولمادا يقع فى الظلام من ينشد النور، ولماذا يعطى ظهره للضياء ؟!

يعاتب الشاعر محمد عبد الله محمد كل من يتعامل معه بكرياء، ويقف منه بعيدا كأنه إله، مغترا بما يطلقه من إرشادات ونصائح يعتقد أنها ثمينة، مع أن كل ما يزجيه لا يعدو أن يكون " وَصْفَة ".. قلما تنجح فى علاج الداء الدفين المتجذر فى الأعماق . ينادى محمد عبد الله محمد على مرشده بأن يقف معه على أرض الشقاء التى يقف عليها، وأن يعاين ما يكابده البائسون، آملا أن يكون معه أكثر سخاءً وأوسع خلقا ورحابا .

ها هو الشاعر يتحسس طريقه صوب الحقيقة التى ينشدها، وربما عرج وانحرف فى طريقه، وربما بالغ فى الحذر كشأن الأعمى الذى يتحسس بكفه الدرج، ومع ذلك فإن العماء مستفحل فيمن حوله، وها هم العميان يلومون أعمى مثلهم على اضطراب خطاه، ولا ينجو من عيبهم وعيب سواهم عليه، مع أنه ليس على الأعمى حرج !

إنه لا يسأل ربه تفسيراً لماذا جيء به إلى هذه الحياة، فإن الحقيقة الكبرى أنه ها هنا بالفعل . يحفظ الوهم ولا يقبل الواقع ! أليس هذيانا وتخريفاً أن يتوقع المخلوق عند انتهاء محنى حياته - كشف حساب من خالقه ؟!

يبدو أن العماء الجزئى نصيب مقدور أمام نظام هذا الكون العجيب . تأمل هذه النَبْتَة التى مدت جذورها لتطلب الماء .

فتخطئ وتصيب ! وهذا النَّسْر الذى ينقض على هدفه ويغنم غنيمته، بينما غيره من النسور تكد وتكابد ومع ذلك يخيب سعيها! إن ما يبدو لنا الآن حظا سيغدو فى المستقبل قدراً بعيد الموح يلهو بقريب !

ما بال الشَّص النائم صاحبه، يصطاد حوتاً لم يصده اليقط، أو كما قال الأمير الأندلسى عبد الرحمن الناصر الأموى :

كم مقيم فازت يداه بغنم  لم تنله بالركض كف مغير .

كلما تأمل الإنسان فيما حوله، هاله ألا يرى العدل المزعوم، فلا ينبغى للعاقل أن يجرب أو ينازع المجانين، فسوف تبدو بعيضا عندهم إذا كان رضاهم شاغلك !

ما للإنسان يفتقد الحب، والحب هنا، وما باله عاطش والماء من حوله ؟! أو كما قال الشاعر القديم :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ  والماء فوق ظهورها محمول

الإنسان مشغول بفكره ووحدته عن الخطو إلى الحقيقة الكبرى القريبة منه. إنه ليس أحرى من بلايين سبقوه ومضوا دون أن يتفطنوا إلى سر الوجود وغاية الحياة، ولكن عليه أن يتمعن ويتأمل ليرى، فغدا سوف تمضى حياته كما مضت حياة الغابرين، وهو لن يرى بعد رحيله شيئا، فليس فى وسع المصباح أن يرى إطباق الظلام. من يريد أن يرى لابد أن يحيا ويبحث ويتأمل. إن الحىّ يبحث على عادته - مولد الأرض وأعمار الجبال، وهو مع ذلك لا يفك يشكو قلقه من أن الكون يمضى لزوال !!

كما من محدق فى العلاقات فصله التحديق عن أسلاك الحياة وعن فهم مغزاها وحكمتها وغايتها، وكم من طفل فقد فى البحث والتحديق أباه ! كحال الذى يفقد طريقه إلى الله وهو يتساءل فى تيهه : هل من ثم إله ؟ وفى البيت الأخير ينهى محمد عبد الله إبحاره ببيت مفعم بالرمز :

مات شَيْخِى لم أُفَتِّشْ قَلْبَهُ

عاشَ فى قَلبى دُعَاه ورِضَاهْ

هذا الشاعر المفكر تراه مشغولا فى كل ما نظمه من أشعار ـ بقضايا الإنسان والكون والحياة .. ومن المؤسف أن مربية محمد عبدالله محمد، وأعنى بها عمق فكره وأغوار ما يعوص فيه، هى التى فوتت على الكثيرين التحليق معه لفهم ما يومئ أو يشير إليه . لقد عشت قرابة ثلاثين عاما أتلقى رُطبا حيا من هذا المفكر العالم الشاعر الأديب .

لم أصادف وقد قاربت حياتى ثلاثة أرباع قرن ـ عقلا كعقل محمد عبدالله محمد، ولا فكرا كفكره، ولا صفاء كصفاء نفسه .. هذا الصفاء الذى حفظ ملامح وجهه حتى عامه الثانى والتسعين من أن تحفر فى أساريره أخاديد العمر، ففارق الحياة راضيا فاهما بسيطا بساطة المفكرين والعلماء الكبار الذين عاشوا حياتهم فى عطاء فياض مستمر لا ينتظر جزاء ولا تمويها ولا شكورا .

رحم الله أبى الروحى محمد عبدالله محمد .